

رؤية الله في الدنيا . والآخرة

٣٢ - قال الله تعالى في الحديث القدسي :

« يَا مُوسَى ، لَنْ تَرَانِي ، إِنَّهُ لَنْ يَرَانِي حَيًّا إِلَّا مَاتَ ، وَلَا يَابِسَ إِلَّا تَدَهَدَهَ »^(١) ، وَلَا رَطْبٌ إِلَّا تَفَرَّقَ . إِنَّمَا يَرَانِي أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ لَا تَمُوتُ أَغْنِيهِمْ ، وَلَا تَبْلَى أَجْسَادُهُمْ »^(٢) .

يقصُّ علينا رَبُّ الْعِزَّةِ سبحانه هذا الموقف مع موسى كليم الله في قرآنه فيقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ فَأَنَّكَ تَرَنِي وَلَئِنْ أَنْظَرْتَنِي إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ انْتَفَرْتُمْ مَكَانَهُمْ فَسَوْفَ تُرَنِّي ثُمَّ تَجْعَلُنِي رَبُّهُمُ الرَّجُلَ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى سَوْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتِ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

لا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ قَضِيَّةَ رُؤْيَا اللَّهِ فِي الدُّنْيَا مُحْشُومَةٌ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ وَالْإِنْسَانُ فِي جَسَدِهِ الْبَشَرِيِّ ، لِأَنَّ هَذَا الْجَسَدَ لَهُ قَوَانِينُ فِي إِدْرَاكَاتِهِ ، وَلَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَكُونُ خَلْقًا بِقَوَانِينٍ تَخْتَلِفُ .

(١) يتدهده: يتدحرج . والدهدهة: قذفك الحجارة من أعلى إلى أسفل ، دحرجة . دهدهه: قلب بعضه على بعض . (لسان العرب - مادة: دهده) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٣٥ / ١٠) ، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥٤٤ / ٣) وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ رَبِّ أَرِنِي فَأَنَّا نَكُونُ مِنْكُمْ ﴾... [الأعراف: ١٤٣] . وأورد السيوطي أثراً آخر في الدر المنثور (٥٤٦ / ٣) وعزاه لابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس: «إن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه، فسأله فقال: ﴿ كُنْ رَبِّي وَلَئِنْ أَنْظَرْتَنِي إِلَى الْجَبَلِ ﴾... [الأعراف: ١٤٣] ، قال: فحف حول الجبل بالملائكة، وحف حول الملائكة بنار، وحف حول النار بملائكة، وحف حولهم بنار، ثم تجلى ربك للجبل تجلى منه مثل المختصر، فجعل الجبل دكاً وخر موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء الله، ثم إنه أفاق فقال: ﴿ سُبْحَنَكَ بُنْتِ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، يعني: أول المؤمنين من بني إسرائيل» .

ففي الدنيا لا بُدَّ أن تخرج مُخْلَفَات الطعام من أجسادنا، وفي الآخرة لا مُخْلَفَات، وفي الدنيا يحكمنا الزمن، وفي الآخرة لا زمن، إذ يظلُّ الإنسان شباباً دائماً. إذن: فهناك تغيير.

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة، ففي الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله، وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى، وهذا قمة النعيم في الآخرة.

أنت الآن تعيش في آثار قدرة الله، وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى.

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكاً.

وكأن الله يريد أن يفهم موسى أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته تعالى رحمة منه، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى؟

وإذا كان موسى قد ضُيعَ برؤية المتجلى عليه، فكيف لو رأى المتجلى؟ والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله. فنحن نعلم أن كُلَّ تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء، وضرربنا لذلك مثلاً من دُنْيَانَا العملية، ولله المثل الأعلى دائماً، وهو مُنَزَّه عن كل مثال.

نجد الإنسان متى عندما يُدْخِل الكهرباء إلى بيته لرغبته في الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول ويقوّائد الكهرباء المتعددة، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة، فيطفى المصابيح، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوي.

لذلك يأتي الإنسان بمُحوّل للطاقة، فيستقبل المحوّل طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويُخَفِّضُها بصورة تناسب المصباح الصغير، وهكذا نحفظ بضوء ضعيف في الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام.

لذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولماذا لا تدركه الأبصار؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئي إلى الرائي ويحدده، فلو أن الأبصار تدركه لحدده، وأصبح من يراه قادراً عليه، ولصار مقدوراً لكم، لأنه دخل في إدراككم.

فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك، والقادر لا ينقلب مقدوراً أبداً، إذن: فمن عظمت أنه لا يُدرك: أنت قد ترى الشمس ولكن أتدعي أنك أدركتها؟ لا، لأن الإدراك معناه الإحاطة.

فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادراً، وصار الله مقدوراً عليه، والقادر بذاته - كما قلنا - لا ينقلب مقدوراً لخلقه أبداً.

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا:

هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه، سواء في الدنيا أم في الآخرة؟

بعضهم قال: لا أحد يرى الله بنص الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾.

ونقول: لكن هناك آيات في القرآن تقول:

﴿رُؤْيُو يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِلَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

و«ناظرة» تضمن الرؤية وتفيدها، وأيضاً فالله يعاقب من كفر به، بأن يحتجب عنه، لأنه سبحانه القائل:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فالكافرون محجوبون^(١) عن رؤية الله عقاباً لهم، ولو اشتركنا معهم وحُجبنا كما حُجبوا، فما ميزتنا كمؤمنين؟

وحين نحتج عالم منهم بأن رؤية الله غير مُمكنة لأن ربنا سبحانه قال

لموسى:

(١) الحجاب: المستر الحاجز. والمحجوب: الممنوع من الوصول. وقال ابن كثير في تفسيره

(٤/٤٨٥): «قال الإمام الشافعي: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه - عز وجل -

يومئذ. وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم

هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿رُؤْيُو يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِلَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢،

٢٣]، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل

- في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنات».

﴿لَنْ تَرَىٰ وَلَكِي أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق:

﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ رَبُّهُ بِالْجَبَلِ جَعَلَهُ دُكَّاً وَخَرَّ^(١) مُؤَمِّنٌ صَبِغاً﴾ [الأعراف: ١٤٣].

إذن: فالله يتجلى لبعض خلقه. أما أن يراه الخلق في الدنيا فلا، لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق سبحانه، بدليل أن الأصلب والأقوى ميثاً وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك.

فلما اندك الجبل خَرَّ موسى صَبِغاً، فإذا كان موسى قد خَرَّ صَبِغاً^(٢) لرؤية المتجلى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه؟ إذن: فهو غير مُعَدَّ له.

وموسى قد واعده ربه ليأتيه، فقال تعالى:

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ يَبْقَىٰ رَبُّهُ أَزْبَعًا لَّيْلَةً...﴾

[الأعراف: ١٤٢].

وقيل: كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه، ولا بُدَّ أن يكون الإعداد بظُهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام، فصام ثلاثين يوماً، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه، فأخذ سواكاً وتسوَّك به ليذهب رائحة فمه.

فأوضح الحق سبحانه له: أما علمت يا موسى أن خلوف^(٣) فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل عليّ بريح المسك فزد عشرة أيام، حتى تأتي كذلك^(٤).

(١) خر يخر: سقط من علو إلى سفلى بصوت. (القاموس القويم ١/ ١٩٠).

(٢) الصبغ: أن يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيراً. (لسان العرب - مادة: صبغ).

(٣) الخلوف: تغير ريح الفم لتأخر الطعام. (لسان العرب - مادة: خلف).

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه: «لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوماً وقد صام ليلهن ونهارهن، فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرت - وهو أعلم بالذي كان - قال: أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفيّ طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرة أيام ثم إيتني، ففعل موسى الذي أمره ربه، فلما كلم الله موسى قال له ما قال». وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٣٥) وعزاه للديلمي.

وعندما جاء موسى للميقات كَلَّمَهُ رَبُّهُ، وتكليم الله لموسى هو نقطة تميز لموسى، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وحينما خَصَّ الله موسى بميزة أَنْ تَكَلَّمَ إِلَيْهِ، حصل من موسى استشراق اصطفاائي، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلمني ربي فقد أقدر أن أراه، لأن استطابة الأُنس تمدُّ للنفس سُبُلَ الأمل في الامتداد في الأشياء، مثلما قال موسى من قبل رَدًّا على سؤال الله:

﴿وَمَا تِلْكَ بِمَعِينِكَ يَتُومِنُ﴾ [طه: ١٧].

كان الجواب يكفي أن يقول «عصا» لكنه قال:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَهَئِذَا^(١) يَأْتِي عَلَى غَنَمِي﴾ [طه: ١٨].

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله: ماذا تفعل بها؟ وأراد بالكلام أن يُطِيلَ الأُنسَ بربه، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة، رَدًّا على سؤال.

ولله المثل الأعلى، نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويُطِيلُ الكلام معه إيناساً له، وحين وجد موسى أن الله يُكَلِّمُهُ استشرفت نفسه أن يراه.

وموسى لم يَقُلْ: أرني ذاتك، بل قال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله، لكن إن أراه الله فهذا أمرٌ بمشيئة الحق، وقَدَّمَ موسى الطلب مُعلِّقاً بمشيئة الله وإرادته، لأنه يعلم أنه غير مُعَدٍّ لاستقبال رؤية الله، لأن تكوينه لا يقوى على ذلك.

وحتى في الروحي والكلام لم يُكَلِّمَ ربُّنا الناس مباشرة، بل لا بُدَّ أن يصطفي من الملائكة رُسُلًا، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفي من البشر رُسُلًا،

(١) هش الشجر يهشه: ضربه بعضاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية. قال تعالى عن موسى: ﴿وَأَهَشْ يَٰأَعْلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ٢١٨]، أي: أسقط بعضاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها. (القاموس القويم ٢/٣٠٣).

وَيُبَلِّغُ الرِّسْلَ النَّاسَ كَلَامَ اللَّهِ، لِأَنَّ الصِّفَاتَ الْكِمَالِيَّةَ الْعَالِيَةَ الْخَالِقَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوْعِبَهَا الْمَخْلُوقُ.

وسبحانه هنا يُعَلِّلُ لموسى بعملية واقعية فأوضح:

لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ حَتَّى أَطْمَئِنَّكَ أَنَّكَ مَخْلُوقٌ بِصُورَةٍ لَا تُمَكِّنُكَ مِنْ رُؤْيِي
انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ، وَالْجَبَلُ مَفْرُوضٌ فِيهِ الصَّلَابَةُ وَالْقُوَّةُ وَالثَّبَاتُ وَالتَّمَسُّكُ، فَإِنْ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ يُمْكِنُكَ أَنْ تَرَانِي.

إِنَّ الْجَبَلَ بِحُكْمِ الْوَاقِعِ وَبِحُكْمِ الْعَقْلِ، وَبِحُكْمِ الْمُنْطَقِ أَقْوَى مِنَ الْإِنْسَانِ
وَأَصْلَبُ مِنْهُ وَأَشَدُّ، وَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ انْدَكَّ، وَالذِّكُّ هُوَ الضَّغْطُ عَلَى شَيْءٍ
مِنْ أَعْلَى لِيُسَوَّى بِشَيْءٍ أَسْفَلَ مِنْهُ.

فطبيعة موسى لَا تَقْوَى عَلَى تَجَلِّيِ اللَّهِ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْأَقْوَى مِنْهُ لَمْ يَقْوِ.

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ: «أَنَا لَا أَرَى» بَلْ قَالَ: «لَنْ تَرَانِي».

فهنالك فرق بين العبارتين. أَنَا أَرَى، لَكِنْ أَنْتَ بِتَكْوِينِكَ الْحَالِي الدُّنْيَوِيِّ
لَنْ تَرَانِي، إِنَّمَا قَدْ تَغَيَّرَ حَالُكَ إِلَى أَنْ تَرَانِي، وَإِذَا كَانَ الْبَشَرُ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ
يَجْعَلُوا لِمَنْ لَمْ يَرَ شَيْئاً أَنْ يَرَى، فَيُظَلُّ يَقْوَى مِنْ بَصَرِهِ إِلَى أَنْ يَرَى.

وبعد ذلك أراد الله أَنْ يَلْفِتَنَا لَفْتَةً تَصَاعِدِيَّةً، وَيُبَيِّنَ لَنَا أَنَّ مُوسَى قَدْ ضَعُوقَ
لرؤية المتجلى عليه، فكيف لو رأى المتجلى؟

يقول الحق سبحانه:

﴿وَحَزَرَ مُوسَى صَعْقاً...﴾ (الأعراف: ١٤٣).

وَيُقَالُ: حَزَرَ الشَّيْءَ إِذَا سَقَطَ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ. وَصَعْقَةُ مُوسَى تُعْبَرُ
عَنِ الْإِغْمَاءِ الطَّوِيلَةِ، فَهِيَ صَعْقَةٌ لَيْسَتْ مَمِيتَةً، وَأَفَاقُ سَيِّدِنَا مُوسَى مِنَ
الصَّعْقَةِ، وَانْتَبَهَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّائِقِ أَنْ يَطْلُبَ الرُّؤْيَةَ الْمُبَاشِرَةَ لِلَّهِ.

لَقَدْ انْصَعَقَ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ رَبَّنَا مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الأعراف: ١٤٣).

وتوبة موسى هنا من أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ

التجليات المخالفة لنواميس الكون، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل، لقد كلمه الله، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية؟ ولماذا لم يترك الأمور للتفاوض التي يعطيها الله له، ويتنعم بفيض جود لا يبذل مجهود؟

ويَقُولُ موسى ويقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: بأن ذاتك - سبحانه - لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها، لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر، لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته، وقال:

﴿سُبْحَانَكَ بَقِيَّتُ الْيَوْمِ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ويذكر الحق سبحانه بني إسرائيل بما قالوه، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم مِّنَ الْعَصَافَةِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

[البقرة: ٥٥].

فبعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم العجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديّتهم، فهم كانوا يريدون إلهاً مادياً، إلهاً يرونه، ولكن الإله من عظمته أنه غيب لا تُدركه الأبصار.

فكُونُ الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر، هذا من عظمته جلّ جلاله، ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحسّ، لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار.

فهم طلبوا الرؤية مَجْهُورَة واضحة يدركونها بحواسهم، وهذا دليل على أنهم مُتَمَسِّكون بالمادية التي هي قِوَام حياتهم.

نقول لهؤلاء: إن سؤالكم يتسم بالغباء، فهم لم يلتفتوا إلى أن بعضاً من كمال وجلال الله غيب، لأنه لو كان مشهوداً مُحَسَّساً لَحُدَّدَ وَحُيِّزَ، وما دام قد حُدَّدَ وَحُيِّزَ في تصوّرهم، فذلك يعني أنه سبحانه قد يوجد في مكان، ولا يوجد في مكان آخر.

والحق سبحانه مُنَزَّه عن مثل ذلك؛ لأنه موجود في كُلِّ الوجود، ولا نراه بالعين، لكن نرى آثار أعماله وجميل صنعه في كُلِّ الكون.

إذن: فكُونُ الله غيباً هو من تمام الجلال والكمال فيه، لكن اليهود قد

صَوَّرُوا الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا عَلَى أَنَّهَا جَسَدِيَّةٌ، حَتَّى أُمُورَ اقْتِيَاتٍ حَيَاتِهِمْ وَهِيَ الطَّعَامُ، لَقَدْ أَرَادَهَا اللَّهُ لَهُمْ غَيْبًا حَتَّى يُرِيحَهُمْ فِي التَّيِّبَةِ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى^(١) كَرَزَقَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يَأْتِي إِلَيْهِمْ، لَمْ يَسْتَنْبِتُوهُ، وَلَمْ يَسْتَوْدُوهُ، وَلَمْ يَعْرِفُوا كُنْهَهُ، وَلَمْ يَجْتَهِدُوا فِي اسْتِخْرَاجِهِ. إِنَّهُ رَزَقَ مِنَ الْغَيْبِ^(٢)، وَمَعَ ذَلِكَ تَمَرَّدُوا عَلَى هَذَا الرِّزْقِ الْقَادِمِ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ، وَقَالُوا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ^(٣) وَعَدَّيْبًا وَيَصْلِيهَا قَالِ اسْتَبْدَلْتُ الَّذِي هُوَ أَذَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَفْطَلُوا مَضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَكَوْا^(٤) بِمَقْصَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَالِيَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْبَاقِينَ يَقْتُلُ الْحَقُّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما أَلْفُوا، وَأَنْ يَرَوْا هَذَا الطَّعَامَ كَأَمْرٍ مَادِيٍّ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ، لِذَلِكَ تَشَكَّكُوا فِي رِزْقِ الْغَيْبِ، وَهُوَ الْمَنَّ وَالسَّلْوى وقالوا: «مَنْ يَدْرِينَا أَنَّ الْمَنَّ قَدْ لَا يَأْتِي، وَأَنَّ السَّلْوى قَدْ لَا تَنْزِلُ عَلَيْنَا».

فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ ثِقَّةٌ فِي رِزْقِ وَهَبِ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ، لِأَنَّهُمْ تَنَاوَلُوا كُلَّ أُمُورِهِمْ بِمَادِيَّةِ صِرْفَةٍ، وَمَا دَامَتْ كُلُّ أُمُورِهِمْ مَادِيَّةٍ فَهَمُّ فِي حَاجَةٍ إِلَى هِزَةٍ عَنِيفَةٍ تَهْزُ أَوْصَالَ مَادِيَّتِهِمْ هَذِهِ، لِتُخْرِجَهُمْ إِلَى مَعْنَى يُؤْمِنُونَ فِيهِ بِالْغَيْبِ. فَرُغِمَ أَنَّهُمْ رَأَوْا الْمَعْجَزَاتِ، وَشَقَّ اللَّهُ الْبَحْرَ لَهُمْ، وَعَبَرُوا الْبَحْرَ وَهَمُّ

(١) المني: ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاءً طيباً لبني إسرائيل. والسَّلْوى: السمانى، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلئ وهو من الطيور المهاجرة من أوروبا في الشتاء إلى البلاد الدافئة لمصر والسودان ويعود ما سلم منه في أوائل الصيف إلى موطنه في أوروبا، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده. (القاموس القويم ٢٤٠/١، ٣٢٦/٢).

(٢) قال تعالى: ﴿وَعَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَنَاءَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلَّامِنْ عِلَيْتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٣) البقل: نبات عشبي يؤكل أو تؤكل بذوره، أو كل ما اخضرت به الأرض. والفوم: الثوم. وقيل فيه أقوال أخرى: الحنطة، الحمص، (القاموس القويم ٩٢/٢).

(٤) بَاوُوا: رجعوا بإثم استحقوا به النار. (لسان العرب - مادة: بوا).

يشاهدون المعجزة فلم تكن خافية عنهم، بل كانت ظاهرة لهم واضحة، دالة دلالة دامغة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته.

ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، أي لم تكفيهم هذه المعجزات، وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أن يروا في حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار.

أما في الآخرة فسيكون الإنسان قد تمَّ إعداده إعداداً آخر ليرى الله، نحن الآن في هذه الدنيا بالطريقة التي أعدنا بها الله لنحيا في هذا العالم لا نستطيع أن نرى الله.

ومسألة إعداد شيء ليمارس مهمة ليس مؤهلاً ولا مهياً لها الآن، أمر موجود في دنيانا، فنحن نعرف أن إنساناً أعمى يتم إجراء جراحة له، أو يتم صناعة نظارة طبية له فيرى، ومن لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها.

فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يعدوا بمقدوراتهم في الكون أشياء لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما، فما بالنا بالخالق الأكرم الإله المربي، ألا يستطيع أن يُعيد خلقنا في الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه؟ إنه القادر على كل شيء.

إن آيات القرآن صريحة في أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين، وهي زيادة في الحسنى عليهم. قال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسٍ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْغَبُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ (١) وَلَا ذَلَّةٌ أَزَلَّتْكَ أَحْصَابُ الْخَلْقِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[يونس: ٢٦].

فالزيادة عطاء زائد في الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة فبواحدة، وهذا الكادر لا يُحدد فضل الله، بل الحق سبحانه يزيد من فضله من يشاء.

فمراتب الجزاء تتعدد: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى، والزيادة عن الحسنى.

(١) القتر: غيرة يعلوها سواد كالذخان. (لسان العرب - مادة: قتر).

وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك :

« إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟

فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وُجُوهنا؟ ألم تُدْخِلْنَا الجنة، وتُنْجِنَا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعْطُوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل^(١) .

إنه نعيم على قَدْر إمكانات الله سبحانه، ولا مُقَارَنَة بين إمكانات الله وإمكانات خَلْقِه، وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك فيزول عنك، ولا تتركه لأنك في الجنة خالد لا تموت. يقول تعالى:

﴿ يَلْبِثُ فِيهِمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١] .

فَمَنْ عِبَدَ اللَّهَ لِيَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَعْطَاهَا لَهُ، وَمَنْ عِبَدَهُ سَبْحَانَهُ لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ فَسَوْفَ يَرْتَقِي فِي الْجَنَّةِ لِيَرَى وَجْهَ اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ الَّذِينَ أَطَاعُوا رَجَاءَ ثَوَابِ الْجَنَّةِ فَسَيَرُونَهُ لِمَحَابٍ، وَلِذَلِكَ يَكُونُ الْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى قَدْرِ الْعُمُقِ الْإِيمَانِيِّ لِلْعَبْدِ.

وجنة الآخرة ليس فيها مُنْغَصَّات الدنيا، بل هي صفاء واستمتاع، يعطي فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيهِ نفسه ويُبعد عنه جميع المنغصَّات، وهو نعيم مُقِيم دائم لا ينتهي.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٢/٤)، والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوي في هذا الكتاب (٣٦٧/١ - ٣٨٤).

سهام إبليس

٣٣ - قال رب العزة في الحديث القدسي :

«النَّظَرَةُ مِنْهُمْ مَسْمُومٌ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ، مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيْمَانًا يَجِدُ خَلَائِقَهُ فِي قَلْبِهِ»^(١).

لقد زأف الحق سبحانه بالرجل والمرأة أن أمرهما بغض البصر، لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والتزوع، فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً في التركيب الكيميائي لكل من الرجل والمرأة.

فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه، وإما ألا يعف فيلغ^(٢) في أعراض الناس؛ لذلك خاطب الحق سبحانه رسوله ليوجه الرجال، فقال:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَوْرُسَهُمْ ذَلِكَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَلَّهَ خَيْرٌ مِمَّا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وكذلك النساء، فقال:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَنْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ أَوْرُسَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فالآيتان تأمران الرجل والمرأة بغض الأبصار وحفظ الفروج.

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٥٧/٣) وعزاه لعبد الله بن مسعود. وكذا العجلوني في كشف الخفاء (٤٥٥/٢)، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/٨) عزوه كلهم إلى الطبراني وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف. وقد أورده الحاكم في مستدركه (٣١٤/٤) من حديث حذيفة غير مروي عن رب العزة، قال الذهبي فيه: "واه وضعيف".

(٢) الولغ: شرب السباع بالسنتها، ولغ الكلب في الإناء: شرب فيه بأطراف لسانه. (لسان العرب - مادة: ولغ)، والمقصود به الخوض في أعراض الناس.

والإنسان له إدراكات متعددة، وكلُّ جهاز إدراك له مَنَاط، فالأذن تسمع الأصوات، والأنف يشمُّ الرائحة، واللسان يتذوق المطعومات والمشروبات، ويتكلم بما يُراد، والعين ترى المراتب.

وأفتنُ شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس يأتي عن طريق العين، فالعين تُبصر ما حولها، فهناك مُبصر (يكسر الصاد) وهو العين، وهناك مُبصر (بفتح الصاد) وهو مصدر الفتنة التي سترها العين.

فلا بُدَّ أن يضع الحقُّ مناعة في كِلَا الطرفين، فأمرنا بغضِّ البصر، وبعد ذلك ستأتي الآيات التي تأمر المُبصر (بفتح الصاد) بعدم إبداء زينته.

فبالنسبة للعين أمرنا بغضِّ البصر وأمر المؤمنات بالجِثْمَة وعدم إبداء الزينة، وبذلك يمنع المسألة من الناحيتين، فحين تغضُّ بصرك عن محارم الله لا يَهْمُكَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ زِينَةٌ أَمْ لَا.

● فَإِنْ غَضَّ الرَّجُلُ بَصْرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَرْأَةِ زِينَةٌ، فَالْمَسْأَلَةُ سَلِيمَةً تَمَامًا.

● وَإِنْ غَضَّ بَصْرَهُ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ مُبْدِيَةً زِينَتَهَا، فَالْمَسْأَلَةُ سَلِيمَةً أَيْضًا،

لأنه لن يرى منها شيئاً يفتنه طالما غَضَّ بصره.

● وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَهِيَ غَيْرُ مُبْدِيَةٍ لَزِينَتِهَا فَلَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ.

● وَلَكِنْ الْخَطُورَةُ فِي الْحَالَةِ الرَّابِعَةِ، وَهِيَ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ وَهِيَ مُبْدِيَةٌ لَزِينَتِهَا، فَهَذَا مَكْمَنُ الْخَطَرِ.

فالمؤمن يغضُّ بصره، والمؤمنة لا تُبدي زينتها، وتغضُّ بصرها أيضاً، حتى لا تُفتنَ برجلٍ وسيمٍ قد يكون أحسنَ من زوجها.

كُلُّ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مَنَعٌ لِلشَّيْءِ الْبَشْعِ الَّذِي قَالَ فِيهِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَجِئَةً وَمَكَّةً نَبِيلاً﴾ [الاسراء: ٣٢].

والحق سُبْحَانَهُ وتعالى ساعة يتكلم عن أوامره ونواهيه، فنجدته مرة يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومرة أخرى يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٧].

وهناك فارق بين الاثنين، فقوله تعالى: (لا تعتدوها) يعني: هذا حَدُّكَ فلا تتعدّه، فأنت وصلت إلى الحدِّ ولكن لا تتعدّه.

ولكن حين يقول سبحانه: (فلا تقربوها) فأنت لم تصل إلى الحد ولكنك بعيد عنه، والملاحظ أن الحق سبحانه بعد كل الأوامر يقول: (لا تعتدوها)، وعند النواهي يقول: (لا تقربوها).

فالأمر المنهي عنه لا يتركك حتى تصل إليه، ولكن يأمرك بالابتعاد عنه حتى لا يُغريك الشيطان بالوقوع فيه.

إذن: هناك فرق بين الفعل وبين أن تقرب الفعل، ومع أن المحرم هو الفعل، فقد نهاك عن الاقتراب منه؛ لأنه سبحانه يريد أن يرحم عواطفك في هذه المسألة بالذات، وهي مسألة الغريزة الجنسية، لأنك إن حُمت حول الحمى تؤشيك أن تواقعها^(١)، فحين تبعد عنه يكون خيراً لك.

وقد قسّم العلماء مظاهر الشعور إلى ثلاث مراحل:

مرحلة الإدراك مرحلة الوجدان مرحلة النزوع

وضرربنا مثلاً لذلك فقلنا: أنت تسير فتجد بستاناً فيه وردة جميلة، ساعة ترى هذه الوردة الجميلة يُقال: إنك أدركت جمال هذه الوردة، فهذا إدراك، فلم يمنعك أحد أن تنظر إلى الوردة وترى جمالها.

فيذا ما أعجبته وراقته واستقر في نفسك حب الوردة، يُقال: هذا وجدان. فانتقلت من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الوجدان.

فيذا مددت يدك لتقطفها فهذه مرحلة النزوع.

الشرع هنا لا يمنعك من أن ترى وردة في بستان، ولم يمنعك أن تعجب بها، ولكنه يمنعك أن تمد يدك لتقطفها.

فالتشريع يتكلم عن مرحلة النزوع إلا في مسألة واحدة، هذه المسألة هي التي لا يمكن فيها فصل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، لأنها

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٩٩) كتاب المساقاة، وكذا البخاري في صحيحه (٢٠٥١، ٥٢).

مراحل مُتداخلة في بعضها، حيث لا تقوى النفس البشرية على الفصل بينها. فمثلاً، إذا رأى إنسان فتاة جميلة فَعَشيقها وأعجب بها، فهذا إدراك ووجدان، ثم أراد الاقتراب منها فنقول له: هذه ليست لك.

فهذه المراحل لا يسهل فصلها عن بعضها، لأن الإدراك وَلَدَ وجداناً، والوجدان أحدث في النفس البشرية عملية غريزية عنيفة لا نستطيع أن نفصل النزوع عنها، فإما أن تنزع وتذهب إليها، وإما أن تعف.

فإن نزعت وذهبت إليها أصبحت المسألة فوضى، وإن لم تفعل تتضايق وتآلم، وتظل عالقة بذهنك وتتعبك التفكير والتعلق بها.

فربنا من رحمته قال لك: يا عبدي أنا أعلم بك، فافصل الإدراك والوجدان عن النزوع في المرأة بصفة خاصة، لأنك لا تستطيع إن أدركت جمالاً ألا تجد في نفسك عشقاً وحُباً، وأنت مُحَرَّم عليك النزوع.

فإن أقبلت هتكت أعراض الناس، وعثت الفوضى، وإن عفتت أتعبت نفسك وظللت في غمٍّ وغمٍّ ونكدٍ وآلم نفسي، فمن الأفضل لك ألا ترى شيئاً من ذلك، وألا تجد حتى لا تنزع.

ولذلك حَرَّمَ الله علينا أن ننظر إلى أعراض غيرنا، حتى يريح الإنسان نفسه من أول الأمر.

فقال تعالى:

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُنَّ مِنْ أَصْوَهِمْ وَبَعْضُهُنَّ أُمَّهَاتُهُنَّ وَأَعْزَمُ عَلَيْكُمْ تَحَصُّنٌ لِنُفُوسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣٠].

فهناك غرض النظر إلى محارم الله، لأنك لو نظرت لأدركت، ولو أدركت لوجدت، ولو وجدت لنزعت، فإن أخذت حظك من النزوع أفسدت الحياة واعتديت على الأعراض، وإن كتمت في نفسك تعبت وتآلمت وعانيت، وعشت حياة تعيسة.

فالحق سبحانه اختصر الطريق لنا، وأمرنا بغض البصر من البداية حتى لا تقع في هذه المشكلة ونمنع حدوثها، وحتى نحتمي أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أن تكتم وتكبت وتمرض وتآلم.

بعض المتحايلين على أوامر الله يدعون أن النظرة لا تحدث شيئاً، وأن

كل واحد في حاله، ونحن نقول لهم: هذا كلام الله الذي خلقنا ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا، وهو الذي أمرنا بذلك. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّينَةَ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ فَحِشَةٌ وَكَأَنَّكُمْ سِيمَاءٌ﴾ [الإسراء: ٣٢].

لم يقل لا تزنوا... ولكن أمرنا بعدم الاقتراب منه، والاقتراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابن خالته، وهذا ابن عمته، وهذا ابن عمها، وهذا تربى معها، وهذا زميلها. وهذا كله فساد في فساد، لأنه طالما يحل له أن يتزوجها فلا عذر لاختلاطه بها، وعليه أن يبتعد ما دام ليس مُحَرَّمًا عليها، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

فامنعوا المسائل من أول مراحلها.

لذلك أمر الحق سبحانه النساء بإخفاء الزينة، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾^(١) وَلَيَقْرَبَنَّ حُجْرَهُنَّ^(٢) عَلَى جُيُوبِهِنَّ^(٣)...﴾

[النور: ٣١].

الزينة هي الأمر الزائد عن الخلقة الفطرية، ولذلك يقولون عن المرأة الجميلة بطبعها أنها ليست بحاجة إلى الزينة، فكانوا يُسمونها غانية^(٤)، أي: غنيت بجمالها أن تتزين.

والمرأة تُحب دائماً أن تتزين وتبرز جمالها ومفاتنها، خاصة إذا كانت

(١) أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال عبد الله بن مسعود: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب. (تفسير ابن كثير ٣/٢٨٣).

(٢) البخر: جمع خمار. وخمار المرأة: ما تغطي به رأسها، وقد أمر الله النساء بإسداله على صدورهن. والخمار: خمر الشيء ستره، وهو كل ما ستر وغطى. (القاموس القويم ١/٢١٠).

(٣) الجيب: جيب القميص والدرع. وهو ما يفتح منه على الصدر. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَيَقْرَبَنَّ حُجْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، أي: يغطين أعلى صدورهن مع وجوههن. (القاموس القويم ١/١٣٨).

(٤) الغانية التي غنيت بحسنها وجمالها عن الخلي. (لسان العرب - مادة: غنى).

غير مُتدَيِّنة، وذلك حتى تجذب أنظار الرجال إليها، حتى أنك أحياناً ترى سيدة مُسَيَّنة، ومع ذلك تضع الأصباغ والمساحيق على وجهها، وهذا شيء غير لائق بها.

فالحق سبحانه أمر المسلمات بغض أبصارهن، وعدم إبداء زينتهن، ومع ذلك رَجَمَ الله ضَعْفَ الأنوثة، فقال:

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ [النور: ٣١].

مثل عينيها التي ترى بهما في الطريق، وقد يكون فيهما كُحْلٌ، وكذلك يدها قد يكون فيها خاتم أو حُلِيٌّ، أو جِئَاءٌ، فهذا مُبَاحٌ لها، لكن زينة الصدر أو زينة الأذن لا بُدَّ أن تُداريها بالحجاب أو الخمار، وكذلك الأسورة والخُلخال.

ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ومن العجيب أنك تجد الكثير من الفتيات والسيدات في زماننا هذا لا تكتفي الواحدة منهن بوضع المساحيق على وجهها، بل تكشف شعرها وصدرها، وبعد ذلك تُعلّق في عنقها قلادة ذهبية فيها مصحف.

وهذا شيء عجيب ومفارقات غريبة تدلُّ على عدم الوعي أو الفهم.

ويَقْصُّ لنا الحق سبحانه في قرآنه مثلاً عملياً من قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، فيوسف بدأت متاعبه في القصر عندما بلغ مرحلة الفتوة، ففي طفولته نظرت إليه امرأة العزيز كطفل جميل، فلم يكن يملك ملامح الرجولة التي تهيج أنوثتها.

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيّر، فقد بدأت تُدرك مفاتنه، وأخذ خيالها يسرّح فيما هو أكثر من الإدراك، وهو التهاب الوجدان بالعاطفة المشبوبة^(١)، ولو كانت محجوبة عنه لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان.

وهذا يعطينا علّة غَضُّ البصر عن المثيرات الجنسية، فكانت نظرتها إلى

(١) شب النار والحرب: أوقدها. شَبَّ النار: اشتعلها. (لسان العرب - مادة: شبب) والعاطفة المشبوبة: المشتعلة المتقدة.

يوسف عليه السلام وهو في قُتوته، بعد أن بلغ أشدهُ نظرةً مختلفة، يُوَضِّحُها الله تعالى في قوله:

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَلِكَةُ وَفِي يَدَيْهَا خَمْرٌ وَفِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ. وَعَلَّقَتِ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ^(١)...﴾

[يوسف: ٢٣].

والمرادة مطالبةً برفقي ولينٍ بسُترٍ ما تريده ممنُ تريده، فإن كان الأمر مُسهلاً فالمرادة تنتهي إلى شيءٍ ما، وإن تأبى الطرفُ الثاني بعد أن عرف المراد فلن تنتهي المرادة إلى الشيء الذي كنت تضبو إليه.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أثر النظر في النسوة اللاتي أرسلت إليهن امرأة العزيز بعد أن شاع أمر حُيِّها وهيامها بفتاها:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَمَتَ كُلَّ وَجْهٍ لَّهُنَّ لِيَكُنَّ مِنَ الْخَارِجِ غُلِيًّا فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْثَرَهُنَّ وَطَلَعْنَ لِيَدَيْهِِنَّ وَقُلْنَ خَشِيَ^(٢) قَوْمًا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ...﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢].

فهُنَّ حين آذَيْنَ امرأةَ العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه، تخيّلنَ له صورةً ما من الحُسن، لكنهن حين رأينه فاقت حقيقته المرئية كُلَّ صورة تخيّلنها عنه، فحدث لهن انبهار.

وأوّل مراحل الانبهار هي الذُّهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ عليك يذهلك عمّا تكون بِصدده، فإن كان في يدك شيء قد يقع منك، وقد قطعْتَ كُلَّ منهُنَّ يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأةُ العزيز لتقطيعِ الفاكهة، أو الطعام المقدّم لهنَّ.



(١) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها. أي: هلم لك. قيل:

هي قبطية وقيل: حورانية (تفسير ابن كثير ٤٧٣/٢) وانظر أيضاً (الإتقان في علوم القرآن

١١٨/٢) وقال في (٢/٢٥٤): «هيت: اسم فعل بمعنى: أسرع وبادر».

(٢) يقال: حاش لله، تنزيهاً له. قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله. (تفسير ابن كثير ٢/

٤٧٧).

النفس والأجل

٣٤ - قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي للنفس:

«أَخْرِجِي. قَالَتْ: لَا أَخْرِجُ إِلَّا تَارَةً. قَالَ: أَخْرِجِي وَإِنْ كَرِهْتِ»^(١).

يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوْعَلًا...﴾ آل عمران: ١٤٥.

فالله سبحانه هو الذي يُطلق الإذن، والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة، ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية للحق سبحانه، فيقول سبحانه:

﴿اللَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فَبَرِّئَتْ إِلَىٰ قَبْضِ عَلِيِّهَا أَلَمْتُ وَيُرْسِلُ الْأَنْفُسَ إِلَىٰ أَجْلِ مُسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَمُوتُ أَفْقَرًا بِمَذَكُّرٍ﴾ الزمر: ٤٢.

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لملاك واحد هو ملك الموت، فيقول:

﴿قُلْ بِمَوْتِكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة: ١١.

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من معاونين لملاك الموت:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً^(٢) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَقُونَ﴾ الأنعام: ٦١.

فقبض الروح والإماتة له أمير أعلى، وهو الحق سبحانه، ومن بعد ذلك

(١) أخرجه البزار (١/ ٣٧١ - كشف الاستار) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٢٥): رجال ثقات.

(٢) الحفظة: جمع حافظ. أي: ملائكة رقباء. (القاموس القويم ١/ ١٦٣) والحفظة: الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة، وهم الحافظون. (اللسان العرب - مادة: حفظ).

هناك مُوَكَّلٌ عامٌّ هو «عزرائيل» مَلَكُ الموت، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة.

وهذه ثلاثة أساليب يَصِفُ بها الحق سبحانه عملية الوفاة وقَبْضِ روح العبد، وليس في هذا تناقضٌ أو تضاربٌ أو اختلاف، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التي صنعها الله، فهو سبحانه الأمر الأعلى، يصدر الأمر إلى عزرائيل، وعزرائيل يُطِيقُ الأمر لجنوده.

فهذه الأساليب الثلاثة كلها صحيحة، لأنها تتعلّق بمدارج الأمر. فالحق سبحانه وتعالى صادق في كُلِّ بلاغ عنه، لأن كُلَّ أمر يُحَدِّدُ الأجل ليس بمراد الموكل بإنهاء الأجل، إنما هو بإذن من الله تعالى الذي يُحَدِّدُ ذلك، وما دام كُلُّ أمر قد صدرَ منه فهو سبحانه الذي يتوفّى الأنفس، وبعد ذلك فالمَلَكُ الذي يتوفّى الأنفس - عزرائيل - له أعوان.

فمَلَكُ الموت عندما يتلقّى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشِرَ كُلَّ واحدٍ مهمته ^(١).

إذن: فصيُروا الأمر بالموت نهائياً إلى الله، وصيُروا الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله، هذا هو الإذن، والإذن يقتضي مأذوناً، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم مَلَكُ الموت بذلك، ومَلَكُ الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى ^(٢).

^(١) قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، فجعل يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقاء، وإن كنتم ترون غير ذلك، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط من حنوطها، فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين» أورده القرطبي في التذكرة (ص ١٢٩) وعزاه لأبي داود الطيالسي وأحمد بن حنبل.

^(٢) نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «ارفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال ملك الموت عليه السلام: يا محمد، طيب نفساً وقر عيناً فأني =

إذن: فأمرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديدده لكل أجلٍ بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر.

لقد أبهم الله زمانه، وأبهم مكانه، وأبهم سببه، وأبهم قدره. وهذا الإبهام هو أشدُّ أنواع البيان؛ لأنه ما دام قد أبهمه في كل هذه الأمور يجب أن نستعدَّ للقاءه في كل زمانٍ، وفي كل مكانٍ، وبأي سبب.

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث في أيِّ سنٍّ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان؛ لأنه سبحانه لو حدَّده زماناً أو مكاناً أو شيئاً أو سبباً، لكان على الإنسان أن ينتظر الموت.

لكن الحق سبحانه شاء هذا الإبهام، وهو أقوى أنواع البيان، ليُلفتك ويحثك على أن تنتظره في أيِّ زمانٍ، وفي أيِّ مكانٍ، وبأيِّ سببٍ، وفي أيِّ سنٍّ.

وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً، ولذلك تخشى ارتكاب أيِّ ذنب حتى لا تُقبض رُوحك وأنت على الذنب، لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ.

إنك لا تضمن من عُمرِكَ أن تعيش إلى آخر الوقت، ولذلك عندما نقول: إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نُصدِّق ذلك، لأن البعض يقول: ولماذا لم يبين الله لنا ذلك؟

ودائماً أقول: لقد أوضح الله ما أبهم، فإن الإبهام هو أقوى بيان، ألم ترَ إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة، فكان الطبيب سببَ موته؟ لقد رأينا ذلك، لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب، ولم يمنع ذلك أن قدَّر الله قد نفذ فيه، فقد يخطئ الطبيب مثلاً في إعطاء حُقنة فتنتهي الحياة.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول:

﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ...﴾ [الأعراف: ٣٤].

= بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر، إلا وأنا أنصفهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم، والله يا محمد لو أنني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها. أورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٧٦) ط. دار التراث القاهرة.

ولنعرف جميعاً أن كلَّ أجلٍ - وإنَّ طالَ - فهو معدود، وكلَّ معدود قليلٌ مهما بدا كثيراً.

ويقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّلًا . . .﴾ [آل عمران: ١٤٥].

هذا القول قد يدفع إلى التساؤل: وهل الموت أمر اختياري؟

لا، ولكن قول الحق سبحانه هنا له إيحاء، لأنك عندما تقول: ما كان لفلان أن يفعل كذا، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله، وفي قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل، أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحدٌ ذلك.

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله، فإذا كانت النفس هي التي تدفع نفسها إلى موارد التهلكة، مع ذلك لا تملك أن تموت، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة؟

إذن: فالموت إنَّ أَرَادَتْهُ النفس فلن يأتي إلا أن يكون الله قد أذن بذلك، وإننا نجد في واقع الحياة صوراً شتى من هذه الصور.

نجد مَنْ يضيق ذرعاً بهذه الحياة؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكُدَّ في الدنيا فيستحضر، إنه يريد أن يفرَّ ممَّا لا يقدر على دفع أسبابه.

أما الذي يملك الطاقة الإيمانية الرُّخبة، فأُيِّ شقاء أو بلاء يُقابله يقول: إن لي ربّاً، وما أجراه عليّ ربِّي فهو المرَبِّي الحكيم الذي يعرف مصلحتي أكثر مما أعلم، ولعلَّ هذا البلاء كفارة لي عن ذنب.

وهذا عكس مَنْ يفرُّ ممَّا لا يقدر على دفع أسبابه، فيحاول أن يقتل نفسه^(١)، وكلُّ ممَّا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك، لكن يتم

(١) أخرج البخاري في صحيحه (١٣٦٤، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده، فما رقا الدم حتى مات»، قال الله تعالى في حديثه القدسي: «بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة» انظر شرح هذا الحديث (١٢٣/١ - ١٣٤) (الحديث التاسع).

إنقاذهم ويُدركهم مَنْ ينفذ مشيئة الله في إنقاذهم، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصاً سامة، أو إطفاء حريق مَنْ أشعل في نفسه النار.

فالمنتحر يريد لنفسه الموت، ولكن الله إذا لم يأذن فلا يُبلّغه الله هذا، فقد تجد مُنتحراً يريد أن يُطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة، أو تجد مُنتحراً آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل مُعلق في السقف فيقطع الحبل، لماذا؟

لأنه لا يقبض الحياة إلا مَنْ وهب الحياة.

قد يقول قائل: ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسان آخر. وهنا يرد المثل الشعبي: لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده.

إن اللحظة التي تُفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود، فمرة تأتي اللحظة بدون سبب، فيموت الإنسان حتف أنفه، ويقول أصدقاؤه: لقد كان معنا منذ قليل، إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل.

ولذلك نجد إنساناً يسعى إلى عافية الحياة، فيذهب لإجراء جراحة ماء، وأثناء إجراء الجراحة يموت.

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر، حتى عندما يلتقي الإنسان بأسد، فيستوي الموت بالثأب، كالموت بظفر الأسد، فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قُرص دواء أو جرعة ماء.

والحق سبحانه يقول:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وما دامت كُلُّ نفس ذائقة الموت، فهذه قضية كونية عامة، فإن كان الموتى من الأخيار، فالموت تعجيلٌ بهم إلى لقاء الله، وإن كانوا أشراراً فالموت يُريح الدنيا منهم، فالموت خيرٌ في كَلا الحالين^(١).

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٦٥١٢) عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يُحدث أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه بجنائزة فقال: مستريحٌ ومستراحٌ منه. قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه. قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب».

ولكن كيف يُذاق الموت؟

وإذا كان الذوق هو إحساس الإنسان بآلم الموت، فكيف يذوق الإنسان آلم الموت بعد أن يموت ويفقد الإحساس؟

قالوا: إن المقصود كل نفس ستذوق مُقدمات الموت، فيأتي على الإنسان وَقْتُ - مهما كان صحيحاً - يدرك أنه لا محالة مَيِّت، فيذوق مُقدمات الموت التي يعرف بها أنه سيموت.

وإذا استعرضنا كُل ما في الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت، وفيما عدا ذلك فتحن نختلف، إذن: فلا بُدَّ أن نلتفت في حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله، وعلينا أن نَعِدَّ العُدَّة لذلك، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية.

ولكن استقبال الموت في لحظات الشُّكْرَات^(١) يختلف بين المؤمن والكافر.

فعابد الدنيا عمل من أجلها فقط، ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة، فعندما يأتي له الموت يجد أنه لم يُقَدِّم شيئاً لآخرته، وأن ما ينتظره هو العذاب، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا ليُلاقى عذاب الآخرة.

أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتي له الموت فهو يستبشر، لأن الذي ينتظره خير يفوق كُل الذي ستركه، كمثّل إنسان يعيش في كوخ صغير، ثم ينتقل إلى قصر فاخر، ألا يكون سعيداً؟

وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذي ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر، أما صاحب الدنيا فمثّل الذي يُؤخذ من قصر إلى نار مُحْرِقَة، ولذلك فهو يكره ساعة الموت^(٢).

(١) الشُّكْرَات: جمع سكرة وهو شذته وغشيته التي تدل الإنسان على أنه ميت. (لسان العرب - مادة: سكر).

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فقلت: يا نبي الله أكرهية الموت فكلنا نكره الموت. فقال: ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه.

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية، ومن النعمة إلى المنعم، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبب، فنحن في الدنيا لا بُدَّ أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد.

والمثال: أنك إن أردت أن تأكل فلا بُدَّ من أن تطهو الطعام أو أن يُعده لك غيرك، وإن أردت أن تلبس فلا بُدَّ لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب.

ووراء كل نتيجة تُوجد سلسلة طويلة من الأسباب، فهناك الذي يزرع، والذي يحصد، والذي ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع، والذي يطحن الدقيق أو ينسج القماش.

أما في الآخرة فلا تُوجد أسباب، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك، أليست هذه حياة نعيم؟

إذن: فالذي تنفج أساريه ساعة الموت هو المؤمن^(١)، والذي ينقبض وجهه ويتشجج عندما يأتيه ملك الموت هو الكافر والعاصي، لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسياً إلى عذاب رهيب.

ويُقال: إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سَمُحة مُستريحة.

نقول: إن هذا صحيح، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه، ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتدُّ عليه المرض فهو يتشبَّث بالأمل في أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع، لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله، وأنه ميت لا محالة، مُضداً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَ الْهُلُومَ • وَأَنْتَ حِينَهُ نَظُرُونَ • وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الواقعة: ٨٥).

= لقاءه أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧). وقال: حسن صحيح.

(١) قال الحسن البصري: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه (انظر: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥).

حينئذ يستعرض أعماله، فإن رأى شريط الحياة حُلواً منيراً، ابتسم وانفرجت أساريره، فيقبض على هذا الوضع.

أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصي فوجهه يسود وتنقبض أساريره فيقبض على هذا الوضع.

وهذا ما نُسّميه الخاتمة، فلحظة الاحتضار فيها يقينٌ بالموت، ففي ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أي شيء إلا حقيقة عمله، فهي التي تبقى في بؤرة شعوره.

وقد أبهم الحق سبحانه مكان موت أحدنا، فقال تعالى:

﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ لِلْمَوْتِ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرْجٍ ۖ مِّنْهُ ۚ﴾ [النساء: ٧٨].

فالحق سبحانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان، فالمعقل البشري الذي يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت - مكاناً - عليه أن يعي جيداً أنه لا يستطيع ذلك.

فلطافة تغلغل الموت تخترق أي مكان^(١) وزمان، ما دام الحق سبحانه قد قضى به، فلا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً، فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة، فلماذا لا تصوّر أن للموت حقيقة.

فإذا ما تسَلَّل الموت للإنسان فإنه يسلب الروح منه، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الملك:

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ أَنْتُمْ ۚ لَأَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ﴾ [الملك: ١، ٢].

إذن: فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس، بل عملية

(١) البروج: جمع برج، وهو الركن المرتفع أو الحصن العالي، والبيت يُبنى فوق السور أو في أعلى الحصن. والبناء المشيد: الذي أحكم بناؤه وطلي ورفع عالياً. (القاموس القويم ٦١/١، ٣٦٣/٢).

(٢) أورد القرطبي في التذكرة (ص ٧٥) من قول ابن عباس: «كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيوراً، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم، فإذا هو برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك ذاري؟ فقال: أدخلنيها ربها. قال إبراهيم: أنا ربها، قال: أدخلنيها من هو أملك بها منك، قال: فمن أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت».

إيجابية وهو مخلوق بسراً دقيق للغاية يناسب دقة الصانع، ووصف الحق سبحانه أمر الموت والحياة في سورة الملك، وقدم لنا الموت على الحياة، مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولاً، ثم يأتي الموت.

لا، إن الموت يكون أولاً، ومن بعده تكون الحياة، فالحياة تعطي للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة، فيحرث الأرض أو يتاجر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته، ويتمتع به السمع والبصر، فيظن أن الحياة هي المخلوقة أولاً.

وسبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ . . . ﴾ [النساء: ٧٨].

أي: إنما توجدون تدرككم الموت، وهذا دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح، إلى أن تدركها في الزمن الذي قدره الله. وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة: « حتى إذا أدركها جرت، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرِكٌ ».

ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق: « الموت سهم أرسل إليك، وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك ».

وهكذا نعرف أن قوله الحق: (يدرككم) يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان، ويجري وراء روحه حتى يدركها.

والحق سبحانه يوضح أنه أتى بالموت ليؤدي أمرين:

الأمر الأول: أن من يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت، فسماعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثاني: أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقي ربه.

إذن: فكلمة « الموت » تعطي الرغب والرهب، فصاحب الإيمان سماعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه: إن متاع الدنيا لن تدوم، أريد أن ألقى ربي.

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية، وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب في عزيزه، فالإنسان ما دام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذي راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن.

فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذي افتقده؛ لأن الله عجل به ليري خيره، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك، وإن كان الذي ذهب إلى ربه غير مؤمن، فالمؤمن يرتاح من شره^(١).

إذن: الموت راحة، والذي عمل صالحاً يستشرف إليه، وهذا رغب، أما الكافر فهو خائف، وهذا رهب.

ولذلك فمن الحق أن يحزن الإنسان على ميت، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق سبحانه:

﴿أَيَسَاءَ تَكُونُوا بِدِرْكِكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرَجٍ مُنْتَصِرِينَ﴾ [النساء: ٧٨].

فقدّر الله لا يمكن أن يمنعه مانع مهما كان، ولا يمكن أن يحمي الإنسان نفسه مما قدره الله له.

فقدّر الله لا يمكن أن يمنعه مانع مهما كان، ولا يمكن أن يحمي الإنسان نفسه مما قدره الله له.

ولذلك يرذُ الحق سبحانه على الذين قالوا:

﴿لَوْ كُنَّا لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فكأنهم أرادوا أن يُعلّلوا القتل أو الموت بأسباب، ومن الذي قال: إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب؟

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْكُمْ مَضْجِعُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

[آل عمران: ١٥٤].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أسرعوا بالجنابة، فإن تك سالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم». أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤)، وكذا مسلم في صحيحه (٩٤٤) كتاب الجنائز.

إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة، وهي مجهولة السبب، ومجهولة الزمان، ومجهولة المكان، ومجهولة العمر.

إذن: فما دامت المسألة مجهولة، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس في موقعة؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس في موقعة؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا في مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع في حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بأرض، ولم يرتبط بزمان، ولم يرتبط بسبب، ولم يرتبط بسبب، وإنما الموت يأتي لأنك تموت، انتهت المسألة.

إذن: فهُم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة، فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية، ولذلك يأتي الرد من الحق سبحانه بأمر واضح للرسول ﷺ:

﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْكُمْ مَضْجِعُهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فكانك أيها الميت قد تكون أحرص على لقاء الموت من حرص الموت عليك، بدليل أننا قلنا: إن الإنسان يكون مريضاً ويلج على أن تُجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلاً: عندي عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً، فيأتي له المريض بوساطة لكي يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلج عليه، ويُغلي أجزء الطبيب وقد يموت المريض.

إذن: فهو يلج على الموت ويحرص عليه. ولا بد أن يقابل المؤمن موت عزيز عليه بالصبر والتسليم لقدر الله، وهؤلاء وصفهم الحق سبحانه بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها.

وأي أمر يصيب الإنسان، إما أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإما أن تكون مصيبة لا دخل

له بها، وحدثت له من غيره مثلاً، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أَعْدَلًا أم ظُلماً؟ إن كانت عَدْلًا فهي قد جبرت الذنب، وإن كانت ظُلماً فسوف يقتض الله له مِمَّنْ ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كُلَّ مصيبة متوقّعا أن يأتي له منها خير، وعلى كل مؤمن أن يُقيم نفسه تقييماً حقيقياً: «هل لي على الله حق؟ أنا مملوك لله وليس لي حقّ عنده، فما يُجرّبه علي فهو يُجرّبه في ملكه هو».

ومن لا يعجبه ذلك فليتاب على أي مصيبة، ويقول لها: لا تصيبيني. ولا تستطيع دُزء أي مصيبة، وما دُمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث، فلنقبلها - كمؤمنين - لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يُعزنا ويكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول: ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِلَيْهِ رُجُوعٌ﴾.

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا، فنحن مملوكون لله، ونحن راجعون إليه.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحمةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فكلُّنا نعيش برحمات الله، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله، والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحمة الله، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى، فَمَنْ يعيش في هذه الحياة وهو مُطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة، فهذا لَوْ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفاراً.

والصلاة من المؤمنين دعاءً.

